



زلفى محمد خير الوزير

صحفية سورية

## «ولا يُجيب سوى صداها» القدس في قصيدة... وسوريا في مراتها



المؤسسة السورية للدراسات وأبحاث الرأي العام  
www.syriainside.com

### المؤسسة السورية للدراسات وأبحاث الرأي العام

مؤسسة علمية بحثية مستقلة وغير حزبية، تُعنى بالدراسات السياسية والإعلامية والاستراتيجية في سورية وبأبحاث الرأي العام حول تطلعات وآراء الشعب السوري في مختلف مجالات الحياة العامة، لبناء قاعدة معرفية وعلمية تساهم في ردم الهوة بين صنّاع القرار (أشخاص - مؤسسات) وبين الجمهور والربط بينهم، لتحقيق التماسك المجتمعي.

### قيم المؤسسة ومبادئها

تلتزم المؤسسة بجملة من القيم المهنية والأخلاقية، هي:

- ❖ معايير حماية الحقوق والحفاظ على سرية المعلومات وخصوصية الأفراد والمؤسسات
- ❖ بناء الثقة المتبادلة بين العملاء والمؤسسة، وتحقيق الشفافية في التعامل على جميع المستويات.
- ❖ مراعاة قيم المجتمع السوري الدينية والثقافية.
- ❖ الابتعاد عن أي صيغ أو أساليب تُعرض على العنف أو تنتهك مبادئ المساواة أو العدالة أو تحط من كرامة الإنسان أو تحث على التمييز.
- ❖ العمل بموضوعية ومهنية وسياسة منفتحة واعية تخدم القضايا الوطنية السورية.



www.syriainside.com



info@syriainside.org



SyriaInsideFoundation



Syriainside1



Syriainside

المؤسسة السورية للدراسات وأبحاث الرأي العام

SYRIAN INSTITUTE FOR STUDIES & PUBLIC OPINION RESEARCHES

## «ولا يُجيبُ سوى صَداها»

### القدسُ في قصيدةٍ... وسوريا في مرآتها

بقلم: زلفى محمد خير الوزير

صحفية سورية

تركيا — تموز/يوليو ٢٠٢٦

أبدأ بما تُوجبه أمانةُ المهنة من إفصاحٍ لا مواردٍ فيه: ناظمُ الأبيات التي أتناولها في هذا المقال هو والدي، الأستاذ الدكتور محمد خير الوزير. وقد كان هذا القربُ وحدهُ كافيًا لأن أعدل عن الكتابة؛ فالصحافة التي تعلمتها لا تحتمل المجاملة، والقراءةُ مظنّتها الأولى. غير أنني لا أكتب اليوم مديحًا لقصيدة، ولا احتفاءً بصاحبها، وما كنتُ لأفعل؛ إنما أكتب لأنّ الأبيات جاءت في لحظةٍ يُعسرُ تجاهلُ دلالتها: ففي جنيف، حيث تنعقد هذه الأيام الدورةُ الثانية والستون لمجلس حقوق الإنسان، تتعاقب على المنابر البياناتُ والقراراتُ والفعالياتُ الموازية، ثم لا يخرج من ذلك كلُّه — إذا وُزن بميزان القدس — لا يرقى لأن يكون صدى صوتها، فضلًا عن أن يكون جوابًا عنه.

يقول الشاعر:

تنوحُ مآذنُ الأقصى الجريحِ وتغسلُ بالدموعِ أسى ثراها  
وتسألُ ليها عن كلِّ فجرٍ أضاعَ على مسالكِ سناها  
وتحملُ في الحنايا ألفَ آهِ وتكتُمُ في المدى شكوى جَواها  
تظللُ القدسُ مُخنّنةً تنادي ولكنَّ لا يُجيبُ سوى صَداها  
أيا فُدسَاهُ لا ينسى فوَادي دموعك حينَ ضاقَ بها مداها  
فإن طالَ الظلامُ فكلُّ صبحٍ سيطلعُ من جراجك لا سواها  
وتبقى في الضمانِ ألفَ وعدٍ إذا ماتتِ قلوبٌ ما نساها

تقوم القصيدة كلها على ثنائية النداء والصدى. فالمآذن «تنوح»، والمدينة «تسألُ ليها»، و«تحملُ في الحنايا ألفَ آهِ» ثم «تكتُمُ شكواها»؛ أفعالٌ كلها صادرةٌ عن القدس، لا واردةٌ إليها. وحين يبلغ النداء ذروته في البيت الذي هو قلبُ القصيدة ومركزُ ثقلها — «تظللُ القدسُ مُخنّنةً تنادي، ولكنَّ لا يجيبُ سوى صَداها» — تكتمل المفارقة: مدينةٌ تتكلمُ فلا يجيبها إلا صوتها مرتدًا عن جدران العالم. وليس في العربية صورةٌ أفسى في وصف الخذلان من أن يكون الصدى هو المجيب الوحيد؛ لأنّ الصدى ليس جوابًا، بل هو الدليلُ على خُلُو المكان ممّن يجيب.

على أنّ القصيدة لا تستسلم لهذه العتمة. ففي بيتيها الأخيرين ينقلب الاتجاه: «فإن طالَ الظلامُ فكلُّ صبحٍ سيطلعُ من جراجك لا سواها»، ثم «وتبقى في الضمانِ ألفَ وعدٍ إذا ماتتِ قلوبٌ ما نساها». هنا يتحوّل الجرحُ نفسه إلى مَطْلَعٍ للفجر، وتنتقل عُهدَةُ القدس من المؤسسات إلى «الضمان»؛ أي من الهيئات التي تجتمع وتصدر البيانات، إلى الشعوب والأفراد الذين يحفظون الوعد وإن ماتت من حولهم قلوب.

وهذا تحديًا ما يمنح القصيدة راهنتيها، ويبرّر — في تقديري — الكتابة عنها. فأنا أخطُ هذه السطور والدورةُ الثانية والستون لمجلس حقوق الإنسان منعقدة في جنيف: قاعاتٌ تكتظُّ بالفود، وتقاريرٌ للمقررين الخاصين، وفعالياتٌ جانبية عن التعذيب والقمع العابر للحدود وحقوق الأسرى، وكلماتٌ بليغة تتلوها كلماتٌ أبلغ. ولست ممّن يبخس هذا الجهدَ قيمته؛ فالتوثيق ضرورة، والمساءلة فريضة، وحفظُ الشهادات دِينٌ للضحايا. لكنّ الصدق المهني يقتضي القول إنّ كلَّ ما أنتج ويُنتج

في هذه الدورة، إذا قيس بحجم ما تكابده القدس وأهلها، لا يرقى لأن يكون صدى صوتها؛ حتى الصدى — وهو أضعف صور الاستجابة في القصيدة وأشدّها مرارة — يبدو اليوم مطمّحًا بعيدًا في أروقة المنظومة الدولية.

ومن جنيف يمتدّ الخيطُ إلى دمشق. فسوريا الخارجة من حربٍ دامت أربعة عشر عامًا تقف اليوم بحكومةٍ جديدة مهیضة الجناح، مثقلة بإعادة إعمار بلدٍ منهك، وبملفات المفقودين والمهجّرين، واقتصادٍ منهارٍ، ومؤسساتٍ دولةٍ تُرمّم حجرًا حجرًا؛ حكومةٍ لا تملك أن تقدّم للقدس جيوشًا ولا موازناتٍ ولا أوراقَ ضغطٍ سياسية. والشعب السوري الذي دفع من دمه وعمرانه وأجباله ما دفع، لا يجد اليوم بين يديه من وسائل نصرته القضية الفلسطينية إلا الدعاء الصادق، ودعم صمود أهلها معنويًا، وكلمة حقٍ تُقال، ودمعة تضامنٍ لا تُشتري ولا تُباع.

وقد يظنّ ظانٌّ أنّ هذا قليل. وأنا أزعّم أنه عيّن ما قصدت إليه القصيدة في خاتمتها: «ألف الوعد» الباقية في الضمائر لا تحفظها الحكومات — مهیضةً كانت أم مقتدرة — بل تحفظها الشعوب التي جرّبت القهرَ فعرفت قيمةً ألا يُترك المقهورُ وحده. والسوريُّ الذي نادى أربعة عشر عامًا فلم يُجبه في كثيرٍ من الأحيان إلا صده، هو أقدّر الناس على فهم البيت المركزي في هذه القصيدة، وأصدقهم حين يعاهد ألا يكون للقدس مجرد صدى، بل جوابًا؛ ولو لم يملك من الجواب إلا قلبه ولسانه ويديه المرفوعتين بالدعاء.

لهذا كتبتُ عن هذه الأبيات؛ لا لأنّ قائلها أبي — فتلك في عُرف المهنة تهمة لا شفاعة — بل لأنها قالت في سبعة أبياتٍ ما عجزت عنه مجلّداً البيانات: إنّ القدس ما تزال تنادي، وإنّ العالم الرسمي ما يزال يكتفي بترجيع الصدى، وإنّ الرهان الأخير — كما كان دائمًا — على الضمائر التي لا تنسى. فإن طال الظلام، فكلُّ صبحٍ سيطلع من الجراح: من جراح القدس أولاً، ولعلّه يمرّ في طريقه إليها بجراح دمشق.